

يوليان وفتح الأندلس

عرض جديد لقضية قديمة

الدكتور صالح بن محمد السنيدي

قسم التاريخ والحضارة. كلية العلوم الاجتماعية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

يوليان الذي كان حاكماً لسبته عندما وصلت أمواج الفتوح الإسلامية الأولى، أصبح شخصية غامضة لا تزيد كثرة البحوث إلا إمعاناً في الغموض على حد تعبير الدكتور حسين مؤنس احتار الباحثون في فهمها ودوافع تصرفاتها، خاصة فيما يتعلق بعلاقتها بالفاتحين المسلمين .

عندما تدرس الفتح الإسلامي للأندلس ستقابلك هذه الشخصية، وتجد أثرها بارزاً في عملية هذا الفتح والتمهيد له، وستفاجأ بتفسير ذلك الجهد الكبير الذي قام به يوليان في خدمة الإسلام والمسلمين، بدوافع أنانية ومادية بحتة، فيها من ضروب التكلف والخيال والتفسير التعسفي الذي لا يقبله منطق الأحداث الشيء الكثير .

حاولت في هذه الصفحات إعادة قراءة نصوصها والربط بين أجزاء رواياتها المتناثرة، ثم الخروج برأي جديد قد يكون حاسماً في فهمها وتفسير غموضها وإدراك دوافعها الحقيقية في تعاملها مع المسلمين، كل ذلك في صفحات موجزة وبعيدة عن التفرعات الجانبية التي تفقد الموضوع وحدته وتماسكه .

يوليان في التاريخ

تختلف الرواية الإسلامية والنصرانية على حد سواء حول شخصية يوليان، حداً دفع بعض الباحثين إلى القول بأنه ليس إلا شخصية أسطورية اختلقها خيال العرب، تقابل هذه النظرة المتطرفة نظرة أخرى معاكسة تجعل من يوليان - النصراني - العامل الأساسي والحاسم في فتح الأندلس^(٢) محاولة - أحياناً - توجيه سير الأحداث في تكلف بل تعسف ليخدم هذا الرأي .

ولاشك أن لمادة هذا الموضوع التاريخية أثر كبير في طرح مثل هذا الرأي أو ذاك، حيث وردت بشكل مضطرب حيناً ومتناقض في أحيان أخرى عندما غطت أخبار هذه الشخصية، فمرة هو قوطي، وأخرى بيزنطي، وثالثة هو بربري، ورابعة هو فارسي!! هذا من ناحية الأصل، ثم هو حاكم سبته المستقل، أو التابع لحكومة طليطلة، أو الدولة البيزنطية^(١).

أما علاقته بالمسلمين عندما قدموا إلى هذه الديار فاتحين على يد القائد عقبة بن نافع ومن بعده موسى بن نصير فقد روتها المصادر بصور متعددة، حيث صورته في شكل الحليف والصديق لعقبة، ثم هو الذي سخر إمكاناته وفتح بلده لتنتقل منه الجيوش الإسلامية فاتحة لأسبانيا القوطية بدون قيد أو شرط، وقبل ذلك هو المتجبر العنيد الذي صمد ضد هؤلاء الفاتحين، ثم تعاون معهم ليحقق أهدافاً ومصالح سياسية وعسكرية^(٢).

روايات متعددة اختلف الباحثون في تفسير مضمونها وفهم محتواها ووقعوا في هذا الاضطراب حول تحديد كنه هذه الشخصية وأثرها الحقيقي في أحداث هذه الفترة، لهذه أجدني مشدوداً إلى هذا الموضوع للغوص فيه بعمق وربط أطرافه المتناثرة محاولاً الوصول إلى حقيقة مقنعة حول يوليان وخاصة ما يتعلق بعلاقته بالفاتحين المسلمين وأثره الحقيقي في فتح الأندلس.

لورجعنا إلى أصل المشكلة لوجدناه في اضطراب تلك الروايات المشار إليه سابقاً، بالإضافة إلى النقص الواضح في المعلومات حيث ظهرت فجوات واستفسارات متعددة بقيت دون جواب، احتار الباحثون في تفسيرها والإجابة عليها، ولعل الحال قد تغيرت قليلاً بظهور بعض الوثائق الجديدة التي لم تكن متوفرة بأيدي الدارسين من قبل بالإضافة إلى ظهور دراسات جريئة حاولت دراسة الموضوع والإدلاء فيه برأي جديد، بل حاول البعض قلب الفكرة السائدة في عملية فتح الأندلس^(٣) كل ذلك كان عاملاً مشجعاً لاقتحام الموضوع من جديد ومحاولة دراسته وفق معايير ومعطيات جديدة تقوم على أساس ربط الأحداث التاريخية بعضها مع بعض وإيجاد علاقة بين أجزائها المتباعدة المتعلقة بهذه الشخصية ثم الاستفادة من تلك الوثائق والدراسات الجديدة في طرق هذا الموضوع، مع محاولة تناوله بحياد تام بعيداً عن الاتكاء على

الدراسات السابقة التي طرقت هذا الموضوع، وجعل البعض منها أساساً وقاعدة لانطلاقة في دراسة هذه الشخصية، مع أنها أعدت من قبل أساتذة الاستشراق الأوائل ممن لا تتوفر فيهم الروح الإسلامية مما ينعكس على النظرة للأحداث نفسها.

بداية أحب أن أشير إلى أن الموضوع لن يدخل في التفاصيل التي أثرت حول هذه الشخصية من حيث أصلها وتبعيتها السياسية، وسأكتفي بالاحالة على مصادرها ومراجعتها التي اهتمت بمثل هذا الموضوع لثلا يكون الحديث تكراراً ممللاً^(١)، وسينصب الحديث حول حقيقة تعاونه مع المسلمين ودوافعه في ذلك.

يوليان مع عقبة :

تتفق المصادر الإسلامية في معظمها حول نقطة مهمة وهي لقاء عقبة بن نافع في حملته الكبرى نحو المغرب الأقصى بحاكم سبتة الكونت يوليان بعد دخوله في طاعة المسلمين صلحاً ونزوله على حكم عقبة الذي أقره على ماتحت يده وهي سبتة وتوابعها^(٢)، ويبدو أن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تطورت العلاقة بين الاثنين حداً أصبح معه يوليان مستشاراً لعقبة في شؤون المنطقة التي يجهلها، خاصة وأنه كان ذا عقل وتجربة^(٣)، نجد ذلك واضحاً في مجريات الحوار الذي فصلته لنا المصادر في أكثر من صورة، مما يؤكد على أنها عدة لقاءات وليست لقاءً واحداً لتطرقها لأكثر من موضوع يحتاج الحديث فيها لتفصيلات واستفسارات متعددة للقاء عابر كما توحى لنا بعض المصادر لاختزالها لموضوعات ذلك اللقاء ودمجها في بعضها.

دارت محاور تلك اللقاءات حول الأهداف المستقبلية لحملة عقبة الجهادية ثم. تطرقت لشؤون المنطقة وأحوالها الدينية والاجتماعية والسياسية على ضفتي مضيق جبل طارق، وكان يوليان الخبير بكل تلك الأمور يسدي للقائد الكبير عقبة نصائحه ويشير عليه بما يراه مناسباً (دلي على حال البربر والروم) فيشرح له الوضع بشكل عام، ثم تتلاحق الأسئلة فيدخل بالتفاصيل، إذ يستشير في توجيه حملته إلى الجزيرة الخضراء من شبه الجزيرة الأيبيرية وإمكانية نجاح الحملة، لكن يوليان يفتح نظره على نقطة مهمة تحول دون تنفيذ هذا الهدف الكبير، وتقف عائقاً أمام نجاحه، وهي البربر الذين ما زالوا خارج الطاعة في المغرب نفسه، فكيف يقتحم ميداناً عسكرياً دون تأمين

ظهره؟ (أترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ويقطع البحر بينك وبين المدد؟).

وبغض النظر عن دوافع يوليان في إبداء هذا الرأي غير الملزم لعقبة وتشكيك البعض في نصحه وأنه أراد بذلك صرف عقبة عن أسبانيا^(١)، إلا أن المدقق فيه يدرك صوابه من الناحية العسكرية والاستراتيجية البحتة مما جعله مقنعا لعقبة نفسه دون البحث في ما وراءه.

ينتقل الحديث بعد ذلك إلى البربر في المغرب فيؤكد يوليان لعقبة أنهم (قوم ليس لهم دين) وأنهم (يكفرون بالله عز وجل ولا يعرفونه)، ويدور حوار متشعب حول هؤلاء ينتهي بقرار عقبة بالاتجاه نحو الجنوب الغربي أي إلى بلاد السوس بقسميها الأدنى والأقصى لقتال البربر والوثنيين من قبائل مصمودة وصنهاجة عملا بنصيحة يوليان حسبما تشير بعض المصادر^(٢).

ومع وضوح تأثير التوجيه والرأي الذي أشار به يوليان على عقبة إلا أنه يستبعد كثيراً أن تكون هذه الحملة التي يقودها عقبة تسير بلا هدف محدد ودون فرق استطلاعية تتحسس المنطقة المستهدفة، وإن كان اتساع الرقعة التي تشملها خطة عقبة، وحرية الحركة داخلها، وبحثه عن أفضل الخيارات المطروحة المناسبة، والاستفادة من العناصر المحلية المتعاونة مع المسلمين لسبب أو لآخر في مثل هذه الأمور كما تصور لنا ذلك قصة يوليان هذه، كل هذا يعد تفسيراً مناسباً لذلك.

يوليان وموسى بن نصير

تظهر هذه الشخصية مرة أخرى على مسرح الأحداث مع موجة الفتح الإسلامي الثانية التي قادها موسى بن نصير، إذ بعد ضمور حركة الفتح الأولى وتقهقر الفاتحين وانشغالهم بإخماد الثورات المتتالية ومحاولة تصحيح مسار الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الذي تعرض لانتكاسات خطيرة بعد وفاة عقبة، يقف يوليان منتظراً ما ستمخض عنه تلك الأحداث فيغلق أبواب مدينته حتى قدوم حملة موسى الكبرى، وسواء أكان يوليان الأب أو الابن حيث توقف البعض عند هذه القضية وحاول أن يشكك في كونه الأب نظراً للفارق الزمني وأرى أن يكون هنا هو الابن وصاحب عقبة هو الأب، بينما

يرى البعض الآخر أنه لا غضاضة في كونه نفس الشخص الذي التقى المسلمين في كلا الحالتين فالزمن الفاصل بين اللقائين ليس كبيراً لو قدرنا أن يوليان التقى عقبة وهو في الثلاثين من عمره^(١). إذ نجد ذلك الموقف يتكرر مع موسى بن نصير بشكل أو بآخر وإن اختلف بالتفاصيل ونوع الخدمة التي قدمها للمسلمين في هذه المرة. تذكر المصادر أن الجيش الإسلامي الفاتح عندما وقف على أبواب المنطقة التي يسيطر عليها يوليان، ولم يظهر مقاومة واضحة أو على الأقل تضطرب الرواية في صفة الاصطدام الأول وكيفية استيلاء المسلمين على طنجة، مع أنها تعد إحدى ممتلكات يوليان^(٢) إلا أنها تفصل لنا الحديث عن تعاونه مع المسلمين فيما بعد بما يشبه الإجماع، حيث تمت المفاوضة بينهما والاتفاق على بذله الطاعة وفتح بلادهم للمسلمين وتقديمه كل العون والمساعدة لهم في مشاريعهم في المستقبل التي تركز على مد النشاط الإسلامي إلى ما خلف المضيق وهو أسبانيا نفسها^(٣).

صلته بالمسلمين: الأسباب والدوافع :

وبغض النظر عن دوافعه في ذلك والتي سنناقشها لاحقاً، إلا أنها خطوة جريئة ومهمة تذكرنا بالدور نفسه الذي أداه مع عقبة في موجة الفتوح الإسلامية الأولى، بل يزيد عليه هذه المرة بأن تحول من الدور النظري أي الرأي والمشورة إلى الميدان العملي. فما هي دوافعه وراء كل ذلك؟ هل كان ذلك بدافع الانتقام الشخصي أو السياسي من الملك القوطي لذريق كما تصوره لنا غالبية المصادر^(٤)؟ أو أن المسألة لا تخرج عن دائرة النطاق الاقتصادي حيث أشارت بعض الروايات صراحة إلى أنه تاجر^(٥). ففي العملية إذاً كسب مادي مؤكد بالنسبة له؟ أم أن هناك أهدافاً ودوافع أخرى أهملتها المصادر وسكتت عنها ويمكن للباحث المتعمق اكتشافها من خلال الروايات المتناثرة وبين ثنايا السطور؟.

وهذا ما أراه بعد فحص وتأن وتقليب للروايات على أوجهها المختلفة إذ من المحتمل جداً أن يوليان الذي تأثر بشخصية عقبة واقتنع بما يدعو إليه قد أعلن إسلامه^(٦) وأصبح واحداً من المسلمين ولهذا أقره عقبة على ماتحت يده. يعضد ذلك عدة حقائق وقرائن يمكن عرضها وهي :-

١ - أن عقبة جعله مستشارا خاصا له فيما يتعلق بشؤون المغرب الأقصى وشبه الجزيرة الأيبيرية، ويبدو ذلك واضحا من الحوار واللقاءات التي أشرنا إليها سابقا، ولا يمكن له أن يثق به لولا إسلامه وتأكده من أنه ناصح أمين، وإلا أصبحت آراؤه محل شك وبخاصة فيما يتعلق بأسبانيا ذات المصالح الحيوية له، كما يستبعد أن يكون عقبة بهذه السذاجة التي تصوره بها الرواية عندما تقبل آراء يولييان وحملها محمل الجد لو لم يكن واثقا منه ومن صدق نواياه، وهذا لا يمكن أن يكون إلا بعد تجربة ومعرفة تامة وإيمان بهدف مشترك.

٢ - من خلال الحوار والحديث المتشعب بين عقبة ويولييان يلاحظ ورود عبارات تفيد معرفة الأخير بالإسلام وإطلاق كلمات لا تصدر إلا من مسلم يظهر ذلك واضحا عندما يدخل في التفاصيل التي تتعلق بالاعتقاد ومحظورات الإسلام، نراه يقول لعقبة مشيرا إلى البربر: (يأكلون الميتة ويشربون الدم من أنعامهم وهم أمثال البهائم، يكفرون بالله عز وجل ولا يعرفون)^(١٣)، من زاوية أخرى لو أنعمنا النظر في الحوار الذي دار بين الطرفين لأحسنا به وكأنه حديث الجندي المطيع لقائده.

٣ - أن يولييان ينتمي إلى قبيلة غمارة البربرية المشهورة على أرجح الأقوال^(١٤). بذل ولاءه للبيزنطيين في فترة قوتهم، واحتفى بظلمهم، فلما انحسر نفوذهم بعد ظهور القوة الجديدة المتمثلة بالمسلمين أخذ زمام المبادرة وبذل الطاعة لهم.

غمارة هذه أسلمت وكان لها أثر واضح في عملية الفتح خاصة في الأندلس، وهم يحيطون بسبته بل يقطنها عدد كبير منهم، إذ عرفت بأنها معقل غماري حتى بعد الإسلام يظهر ذلك واضحا من تناوب زعمائها على حكم المدينة^(١٥). وفي هذه الحالة ليس أمام يولييان من خيار إلا سلوك الطريق الذي سلكه وهو الإسلام حتى ولو لم يكن غماريا، لئلا يفقد ملكه ونفوذه في المنطقة.

٤ - العون الكبير الذي قدمه للمسلمين فيما يتعلق بفتح الأندلس في الفترة اللاحقة، والدور الذي أداه في أحداثها يصعب تفسيره بدوافع شخصية بحتة كما يحاول البعض إقناعنا به، بل هي دوافع أكبر من ذلك وهي الدوافع العقديّة التي

أهله ليدخل ضمن الخطة الأساسية للفتح ، ويتحرك داخل تشكيلتها ويصبح جزءاً من أحداثها يتضح ذلك جلياً حينما نستعرض إسهاماته في هذا الميدان، إذ بذل خدماته للمسلمين مشيراً ومشجاً على فتح الأندلس ووضعاً إمكاناته تحت تصرفهم ولم يكتف بذلك بل أراد أن يدلل عملياً على ضعف الدفاعات الأسبانية فقاد حملة عسكرية مفاجئة على السواحل الجنوبية لأسبانيا - بالاتفاق مع موسى بن نصير- حقق فيها نجاحاً واضحاً، وأثبت أنه صادق في نواياه مخلص فيما أوكل إليه^(١١).

وبعد الموافقة على خطة الفتح أصبحت عاصمته سبتة مركزاً لتجمع القوات الإسلامية المشاركة في الفتح ، وأهم القواعد والمعابر الرئيسة ومراكز التموين للجيش الإسلامي الفاتح . كما هيئاً الأسطول البحري الكافي لنقلهم إلى الطرف الآخر للمضيق^(١٢) ، وبعد نزولهم في جنوب أسبانيا يصبح دليلهم ومستشارهم هناك، كما يشارك في العمليات العسكرية مع المسلمين بجدة وحماس^(١٣).

المسلمون من جانبهم منحوه ثقتهم ليؤدي دوره المذكور بنجاح وهي ثقة يصعب تفسيرها بغير ما ذكرناه سابقاً وهو إسلام الرجل إذ يستبعد كثيراً أن يستعين المسلمون - وهو ما أثبتته وقائع التاريخ - في شخص لا يدين بدينهم في أمور عسكرية بحته مثل دور يوليان في هذه العملية لولا ما يربطه بهم من رباط العقيدة.

٥ - حفيده أيوب بن سليمان الذي عدّه ابن الفرضي أحد علماء الأندلس ومجتهديها، يتباهى أمام أقرانه وزملائه بجده يوليان هذا، ويصفه بأنه هو الذي أدخل الإسلام إلى الأندلس^(١٤)، فهل يعقل أن يفخر أحد بمكانة أيوب وفضله وعلمه في الأندلس، لو لم يكن عارفاً وواثقاً من شخص المفتخر به وحسن إسلامه؟ خاصة وهو الذي يعرف جيداً آيات الولاء والبراء التي تنظم علاقة المسلمين وارتباطهم بغيرهم، والتي تواترت في القرآن الكريم وترجمها المسلمون إلى واقع ملموس - سواء في صدر الإسلام أو ما تلاه من عصور - حتى مع الآباء والأبناء.

نعود إلى يوليان نفسه وماذا كسب؟ لو حسبناها بحساب الربح والخسارة المادية، لوجدناه لم يكسب شيئاً يذكر مقابل خسارته، لكنه داعي العقيدة وما يمليه عليه ذلك من واجب السمع والطاعة لفائده إذ فتح بلده للمسلمين دون قيد أو شرط فاقدًا

الزعامة والسلطة فيها. تراه فعل ذلك لماذا؟ دوافع شخصية مثل رد الاعتبار لشرف ابنته المنتهك؟ أم دوافع سياسية كالانتقام لصديقه المغدور غيطشة؟ أم للكسب المادي البحت؟ افتراضات لاترقى إلى بذل كل تلك التضحية، ليتهم قالوا بدوافع أكثر قبولاً وتصديقاً مثل غضبه لفقدانه إقليم الجزيرة الخضراء التي تفيد بعض الروايات تبعيتها له^(٢٦) وأن الحاكم الأسباني الجديد قد انتزعها منه، أو مخالفته المذهبية للحاكم الجديد الذي أخذ يمارس الضغوط ضد معارضيهِ سواء في الدين أو السياسة^(٢٧)، أو نحو ذلك مما يبعث على القبول، لكن والحال هذه فلا يمكن تفسير ما قام به إلا بدوافع عقدية بحتة جعلته يضحي باستقلاليتِه بل بمركزه وإمارته، مندفعاً مع الفاتحين، مشاركاً لهم في جهادهم، متنقلاً معهم في الميادين العسكرية باذلاً نفسه وماله^(٢٨) في سبيل ذلك.

يوليان وفتح الأندلس :

أما قضية اتصاله بالمسلمين ومحاولة تحريضهم ضد الحكومة القائمة في أسبانيا وكونه هو الذي ابتدأ ذلك للأسباب الآتية الذكر سواء أكانت شخصية أو لمساعدة أبناء غيطشة لاستعادة حكمهم، فأمر يحيط به الشك من كل جانب، إذ لو كان هذا هو هدفه النهائي لتوقف نشاطه وتعاونه مع المسلمين بعد تخطيط خصمه في موقعة (وادي لكة الشهيرة)^(٢٩)، لكن نلاحظ أن دوره لم ينته بتسهيل مهمة هؤلاء بدخول أسبانيا، بل ظل يواصل دوره فيما بعد بصفته مرشد لهم ومعين برأيه حيناً وسيفه في أحيان أخرى^(٣٠)، دالاً لهم على عورات البلد ومسالكه حتى نهاية الفتح^(٣١)، خلافاً لمن عزا تعاونه هذا إلى اعتقاده بأن المسلمين ليسوا إلا طلاب غنائم وسيعودون بعد أن يملأوا جيوبهم وأيديهم منها^(٣٢)، مما يدل على أن القضية قضية اقتناع واعتقاد وليست عواطف مؤقتة لاتلبث أن تحمد، كما يحاول البعض تصويرها وحصرها في قصة ابنته مع لذريق أو تعاطفه مع أولاد صديقه غيطشة.

ويصل الشك إلى أصل الرواية التي تقول باتصاله بالمسلمين وحثهم على العبور إلى أسبانيا، إذ تشير روايات متعددة إلى أن المسلمين هم الذين بادروه بالاتصال على عكس ما هو سائد، حيث تفيد رواية لابن خلدون أن موسى بن نصير هو الذي وفد على سبتة والتقى يوليان ورغبه في غزو الأندلس^(٣٣)، كما تحدد رواية أخرى لابن

عذارى المكان نفسه الذي عقد فيه الاجتماع بين موسى ويوليان ، وهو إحدى السفن الراسية على شاطئ سبتة^(٣٢) ، كما يذكر ابن عبد الحكم أن طارق بن زياد قد راسل يوليان ولاطفه حتى تهاديا^(٣٣) ، وهذا يؤكد حقيقة واضحة وهي أن يوليان لم يكن يسعى في أي مشروع عدائي ضد أسبانيا أو يفكر فيه إلا بعد أن كسبه المسلمون واستعادوا الثقة به بعد انقطاع^(٣٤) ، فعادت العلاقات والتنسيق المشترك بين الطرفين فيما يتعلق بفتح الأندلس ، بعد أن تهيأت الظروف المناسبة لذلك ، فبدأت الاجتماعات وتكررت الزيارات بين الطرفين ، وقام يوليان هو الآخر بزيارة لطارق في طنجة وأخرى لموسى القيروان^(٣٥) للإعداد النهائي لهذه العملية بعد الاتفاق عليها مبدئيا .

جذور المشكلة وظروفها :

ولعل مرد هذا الخلط في قضية يوليان واضطراب الروايات حوله وتداخلها يعود إلى عدة نقاط منها :

(أ) طول العهد بهذه الأحداث وتأخر كتابتها ، إذ لم تسجل إلا بعد وقت طويل من حدوثها ، مما أربك رواتها وهنا امتزج التاريخ بالقصص الشعبي المتداول ، ولما أراد مؤرخونا كتابتها أعوزتهم المعلومات الدقيقة لتفسير بعض الأحداث وربطها ببعضها ، فكان هذا الاضطراب والخلط في تفسير الرواية التاريخية التي نجدها واضحة في كتابات من توقفوا عند هذه الشخصية وحلّلوا أخبارها فهذا حسين مؤنس عمدة مؤرخي الأندلس العرب - مثلا - الذي يعد أكثر من تناول هذه الشخصية بالبحث والتحليل في عدد من كتاباته ، تصل به الحيرة والشك إلى حد التناقض أحيانا - وهو معذور في ذلك - فمرة هو موجود والتقى عقبة^(٣٦) وأخرى مشكوك في وجوده ولقائه عقبة^(٣٧) ، ثم هاهو يتساءل : «هل كان عقبة طالبا لهذه الهدايا الحسنة فقط - يقصد تلك التي قدمها له يوليان - فمن بذهبا جاز له أن يعفى من قبول الإسلام أو بذل الجزية أو الحرب؟ أو أن عقبة اكتفى بما بذل هذا الرجل من طاعة اسمية فأعفاه من كل قيد ، وقبل نصيحته وعمل بها؟» ثم يقول : «جيوش إسلامية غازية تقبل على بلاد لتفتحها ، فيقدم ملك هذه البلاد بالهدايا الحسنة والنصيحة الطيبة فينصرف المسلمون للإسلام ولا جزية ولا قتال»^(٣٨) .

ونحن نتساءل معه أيضا إذا لم يكن ما توصلنا إليه حول حقيقة الرجل وتفسير موقفه
مخرجاً لذلك !!

(ب) سرعة فتح الأندلس وقصر مدته مقارنة بالفتوح الإسلامية الأخرى خاصة
المغرب الذي استمر ما يقرب من سبعين سنة^(٣٩)، جعلت هؤلاء المؤرخين يبحثون عن
تعليل لهذا الحدث فوجدوه في شخصية يوليان، ويضخمون أثر العوامل المساعدة
الأخرى في تحقيق ذلك الانتصار، دون إنعام النظر في الخطة المحكمة التي وضعها
قادة هذا الفتح والجهد الذي بذله هؤلاء، على أنه تفسير منطقي لذلك.

(ج) الاسم الذي يحمله هذا الرجل^(٤٠) عندما ظل معروفاً به حتى بعد امتزاجه
بالمسلمين ودخوله في صفهم، مما يوحي ببقائه على ديانته، إذ من المفترض أن يتخذ
اسماً يتناسب مع هذا التحول في الديانة وربما حدث ذلك فعلاً لكنه مع ذلك ظل
يعرف بهذا الاسم الذي أصبح له كالشهرة.

أما الاسم نفسه - يوليان - فالأغلب أنه لقب بيزنطي على حاكم هذه الناحية من
أفريقية^(٤١)، بقي يوليان يحمله ويسمى به حتى بعد زوال نفوذ البيزنطيين، وهذا مما زاد
الموضوع تعقيداً واضطراباً كما أسلفنا.

يوليان : بعد الفتح الإسلامي للأندلس :

أخيراً نحب أن نشير إلى أن الغموض ظل يلاحق هذه الشخصية حتى النهاية،
فلا نعرف شيئاً عن مصيره بعد مشاركته المسلمين في وقائع الفتح، إلا ما ألمحت إليه
بعض الروايات من تولية طارق له على الجزيرة الخضراء بعد فتحها^(٤٢) كمكافأة له على
الدور المشرف الذي قام به في فتح الأندلس. وإن كانت رواية أخرى - غير مؤكدة -
تفيد بمصاحبتة القادة الفاتحين إلى دمشق، ورجوعه بعد ذلك إلى الأندلس معززا
مكرماً، واختياره الاستقرار بقرطبة، حيث أمضى بقية عمره فيها محاطاً بالرعاية
والتقدير^(٤٣)، بينما تذكر رواية نصرانية لا يعول عليها كثيراً نظراً لاعتمادها القصص
الشعبي المتداول أكثر من اعتمادها على الحقائق والوقائع التاريخية، فتذكر أنه رجع بعد
الفتح إلى سبتة وأقطع ما حوله من الأراضي، وقلد إماراتها جزءاً من خدماته، ثم تذكر

أنه قتل بيد مواطنيه في معركة نشبت بينه وبينهم ، أو أنه قتل بعد ذلك بأعوام في ولاية الحر الثقفي بيد العرب لريبة في ولاته^(٤٤) ، وإن أشارت عبارة لابن خلدون بأنه (هلك بسبته)^(٤٥) ، مما يفيد بعودته إليها ، لكنها لم تفصل لنا أكثر من ذلك ، هل عاد إليها واليا أو مجرد نزيل يجتر ذكرياته ، أقدمه الحنين إلى موطنه وأحب أن يعيش بقية أيامه على أرضها ويضمه ثرائها ، ولا يمنع الأخذ بكلا الروايتين فيحتمل أنه اتخذ قرطبة موطنًا له واستقر بها بصفته مستشار لوالها الجديد ، ثم لما طال به العمر أثر الرحيل إلى مسقط رأسه وبقي فيها حتى وفاته .

أما أولاده وأحفاده فمعلوماتنا هي الأخرى ضئيلة ، فكل ما ظفرنا به هو نتف من الأخبار لا نفي بالغرض المطلوب ، إذ تفيد بأنه خلف بنين وأحفادا أسلموا وحسن اسلامهم نذكر منهم على سبيل المثال حفيده أيوب بن سليمان الذي مر معنا سابقا وترجم له ابن الفرضي وعده من أهل العلم ، ويذكر له رحلة علمية إلى المشرق أدخل فيها كثيرا من كتب العراقيين إلى الأندلس ، ثم يضيف أنه كان (مائلا بمذهبه إلى الحجة لهجا بالنظر لا يرى التقليد)^(٤٦) ، كما ذكر ابنه سليمان بن أيوب الذي تتلمذ عليه ابن الفرضي نفسه في قرطبة ووصفه بالزهد والتواضع وعده من أهل العلم والنظر والحفظ للمذاهب مع ميله للحجة والدليل^(٤٧) .

الهوامش

- (١) انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس، جدة ١٤٠٥هـ، ص ٥٢، محمد عبد الله عنان: «دولة الإسلام في الأندلس»، القاهرة ١٣٨٩م ج ١ ص ٢٦.
- (٢) سار على هذا المنحى أغلب الذين كتبوا عنه من قدماء ومحدثين.
- (٣) ناقش أصل هذه الشخصية وارتباطها السياسي قبيل الفتح الإسلامي عدد من المؤرخين والباحثين على رأسهم:

DOZY (Reinhart), Etudes sur la conquete de l'Espagne par les Arabes, in Recherches sur l'histoire et al litterature de l'Espagne Amsterdam, 1965. 1, pp. 57-65.

DOZY, Histuoir de l'Espagne Musulman, Madrid. 1984. trad. esp, vol. 11 P. 40.

CODERA (Francisco), El llamado conde D. julian, en Coleccion de Estudios Arabes, Madrid, (1903), 7, pp. 45-94.

SAAVEDRA, (Eduardo). Estudios Sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892. PP. 48-61.

E. LEVI-PROVENCAL. Espana Musulmana. Vol. IV, trad. esp. Madrid, (1967). PP.8-10.

- حسين مؤنس: فجر، ص ص ٦٥-٥٢: رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس: «مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد» عدد ١٨/ ١٩٧٤ ص ص ١١٥-١١٦. عنان: «دولة الإسلام» ١/ ٣٧-٣٤.

محمد عبد الحميد عيسى: الفتح الإسلامي للأندلس، القاهرة ١٩٨٥. ص ص ١٠٥-٩٩. السيد عبد العزيز سالم: «تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس» القاهرة ١٩٨٦ ص ص ٢٧-٢٨ عبد الواحد ذنون طه: الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال افريقيا والأندلس، بغداد ١٩٨٢ ص ص ١٢٣. إبراهيم بيضون: الدولة العربية في أسبانيا. بيروت ١٩٧٨ ص ص ٦٥-٦٧ إدريس أحمد خليفة: التاريخ المغربي لمدينة سبتة، الرباط ١٤٩٨. ص ص ٨١-٨٩ خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس الفتح وعصر الولاة لبيبا ١٩٨٠ ص ص ٨١-٧٧.

(٤) انظر: مجهول المؤلف: أخبار مجموعة في فتح الأندلس ط. الأبياري بيروت ١٤٠١هـ ص ١٥: أحمد بن محمد المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ط. إحسان عباس، بيروت ١٣٨٨هـ ج ١. ص ٢٥٠.

(٥) نشر في هذا العدد إلى تلك الدراسة التي قام بها الباحث الأسباني IGNACIO OLAGUE بعنوان La Re-volacion Islamia en Occidente Barcelona 1974. في ٥١٥ صفحة، والتي ظهرت لأول مرة باللغة الأسبانية، ثم نشرت في عدة لغات كان أخرها بالعربية بعنوان: العرب لم يغزو الأندلس، إن كانت ترجمة انتقائية ومبتسرة. ومرد هذا الاهتمام بهذه الدراسة ماتحملة من أفكار جريئة بغض النظر عن مدى مصداقيتها فيما يتعلق بفتح الأندلس ومغالطتها لكثير من حقائقه الثابتة: حيث يرى المؤلف أن التأثيرات الإسلامية قد وصلت إلى أسبانيا قبل وصول الفاتحين المسلمين، ومن هنا فهو يحاول أن يثبت أن الفتح العسكري ليس حقيقة وقد توالى الردود على هذا الكتاب ما بين مؤيد ومعارض في لغات متعددة.

(٦) انظر مثلاً هامش (٢).

(٧) توقف عدد من المؤرخين عند هذا اللقاء وما دار فيه من حوار، نذكر على سبيل المثال:

- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري: «المسالك والممالك» تحقيق أدريان فان ليفن وأندري فيري ط. تونس ١٩٩٢م ج٢ ص ٧٨١: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب نشر دي سلان ط. الجزائر ١٩١١م. أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق: تاريخ أفريقية والمغرب تحقيق عبد الله الزيدان وعز الدين عمر موسى ط، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٠م ص ١٤. ابن عذاري المراكشي البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ط. ج. س. كولان وليفي بروفنسال بيروت ٤٠٠هـ. ج ١ ص ٢٦. عبيد الله بن صالح: فتح أفريقية محلق بكتاب JUAN VERNET GINES, Historia de Marruecos, la Islamizacion, Tetuan 1957. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ط. بيروت ١٣٨٥ هـ ج ٤ ص ١٠٦. النويري نهاية الأرب في فنون الأدب الجزء الخاص بالغرب الاسلامي الذي حققه مصطفى أبو ضيف ص. الدار البيضاء ١٩٨٤م ص ١٩٢. أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ث. الدار البيضاء ١٩٥٤م ص ٨٢.

(٨) ابن عذاري: البيان ٢٠٢/١.

(٩) مؤنس: «رواية جديدة» ص ١١٥: عيسى: الفتح ص ١٠١ من محريات الحديث بين الشخصيتين حول هذا الموضوع يتضح تفكير المسلمين المبكر بفتح الأندلس واهتمامهم بذلك، لكن عقبة أمام المبررات التي أدلى بها يوليان اقتنع بأن وقته لم يكن بعد.

(١٠) انظر: الرقيق: تاريخ ص ١٤: ابن عذاري: البيان ٢٦/١: الناصري: الاستقصاء ٨٢/١؛ ذنون: الفتح ص ١٢٧.

(١١) انظر: مؤنس: فتح العرب للمغرب ط. القاهرة؟ ص ١٩٢: رواية جديدة» ص ١١٥ ذنون: الفتح ص ١٤٢.

(١٢) انظر: ابن عذاري: البيان ٢٦/١.

(١٣) تحدثت عن ذلك مصادر فتح الأندلس ومراجعته، انظر على سبيل المثال: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: فتوح أفريقيا والأندلس ط. عبد الله أنيس الطباع بيروت ١٩٨٧م ص ٧٢-٧٣؛ أخبار مجموعة: ص ١٦: الرقيق: تاريخ ص ٢١-٤٢: ابن عذاري: البيان ٢/٤-٦ عبد الملك بن الكردبوس: تاريخ الأندلس تحقيق أحمد العبادي مدريد ١٩٧١م ص ص ٤٣-٤٦؛ المقرئ: نفح ٢٥١-٢٥٢؛ ابن الأثير: الكامل ج/٥٦١.

(١٤) نقصد بالشخصي هو محاولة الانتقام لشرف ابنته التي أرسلها لتزويج عند لذريق في طليطلة. فانتهاك عرضها وأما الدافع السياسي فهو تعاطفه مع أولاد صديقه غيطشة الذي ذهب ضحية مؤامرة دبرها ضده أحد المنتفذين في الجيش الأسباني وهو لذريق نفسه، ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك فيذكرون أن أولاد غيطشة التجؤوا إليه وطلبوا نصرته. وفي كلتا الحالتين فإنه لن يتمكن من مواجهة لذريق فقرر الالتجاء إلى المسلمين للانتقام منه، فكانت دعوتهم وتسهيل مهمة دخولهم إلى أسبانيا. وقد أوردت أغلب مصادر الفتح قصة ابنته المذكورة وعزت أسباب تعاونه مع المسلمين إلى هذين الدافعين، ومن ثم تردد الباحثون والمحدثون بين هذا الدافع أو ذاك. انظر في هذا الصدد.

SAAVEDRA, Estudios, PP. 59-61. PROVENCAL, Espana Musulmana, PP. 9-10 JOSE AN-
TONIO CONDE, Historia de la dominacion de los Arabes en Espana, Madrid. 1820. vol.1 p.25.

مؤنس: فجر ٥٩/ : عنان: دولة ٢٦-٢٧؛ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ط. بيروت؟ ص ٥٢-٥٣ عيسى: الفتح ص ١٠٢؛ الصوفي: تاريخ العرب ٧٨-٨١؛ خليل السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس بغداد ١٩٨٦ م ص ص ٢٠-٢١.

(١٥) انظر: ابن القوطية القرطبي: تاريخ افتتاح والأندلس الطباع بيروت ١٩٥٧ م ص ٢٢.

(١٦) تذكر بعض المصادر أن ديانتها هي النصرانية، انظر: المقرئ: نفح ١/ ٢٥١؛ الناصري: الاستقصاء ٨٢، ٦٥/١.

(١٧) الرقيق: تاريخ؛ وقد سبق عرض بعض المقاطع من ذلك الحوار والإحالة على أماكنها في المصادر.

(١٨) قال به وأكده شيخ المؤرخين فيما يتعلق بهذه النقطة بالذات ابن خلدون، إذ وصفه بملك غمارة وأميرها، انظر: العبر وديوان المبتدأ والخبر ط. دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨١ ج ١١ ص ٤٢٧؛ الناصري: الاستقصاء ٦٥/١؛ مؤنس: فجر ص ص ٧٢، ٥٤؛ كما يفيد إدريس خليفة الذي يحاول تأكيد هذا الانتفاء، بوجود عائلة غمارية يعرف أفرادها بأولاد جليان. التاريخ المغربي ص ٨١.

(١٩) انظر: ابن عذاري: البيان ٢٠٢/١.

(٢٠) ابن الكردبوس: تاريخ ص ٤٥؛ محمد بن عبد المنعم الدميري: الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٨٤ م ص ٢٥؛ المقرئ: نفح ١/ ٢٥٢-٢٥٣؛ مؤنس: فجر ص ص ٦٥-٦٦؛ عيسى: الفتح ص ١٠٦.

(٢١) تؤكد الرواية التاريخية على دوره في هذا الموضوع، على خلاف بينها حول ملكيتها له أو عدمه، فقال بالأول كل من: ابن عبد الحكم: فتوح ص ٧٢؛ الدميري: الروض ص ٢٥؛ بينما أشار آخرون إلى أنه قد استأجرها لهذا الغرض من التجار حتى لا يثير الريبة والفرع لدى سكان الأطراف الجنوبية من اسبانيا، انظر: الرقيق: تاريخ ص ٤٢؛ ابن عذاري: البيان ٦/٢. وقد حظيت هذه النقطة بالذات بعناية ودراسة بعض الباحثين حاولوا من خلالها أن ينقوا هذا الاعتقاد الاسلامي على يولييان فيما يتعلق بهذا الجانب المهم ويجري الآن إعداد دراسة عن الخطة والاستراتيجية في عملية فتح الأندلس نقوم بها سنتطرق لهذا الموضوع.

(٢٢) انظر: المقرئ: نفح ١/ ٢٥٧؛ مؤنس: فجر ص ٧٢؛ عنان: دولة ٥٢/١.

(٢٣) تاريخ علماء الأندلس ط. القاهرة ١٩٦٦ م ج ١ ص ص ٨٧٨٦ ترجمة رقم ٢٧٠.

(٢٤) ابن عبد الحكم: فتوح ص ٧٢.

(٢٥) تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن اسبانيا في هذه الفترة بالذات مازالت تعيش فترة صراع مذهبي بين النصرانية الكاثوليكية والأريوسية التي تقول ببشرية المسيح، وقد اعتنق الحكام القوط الكاثوليكية وقاموا بالتضييق على مخالفيهم سواء بالمذهب أو الديانة؛ انظر: السامرائي: تاريخ ص ١٢؛ روجيه جارودي: «الاسلام في الغرب» ترجمة محمد الصدر بيروت ١٩٩١ م ص ص ١٧-٢٢.

(٢٦) يصفه ابن القوطية بأنه أحد «تجار العجم» افتتاح ص ٢٢.

(٢٧) وهي الموقعة الفاصلة في تاريخ فتح الأندلس.

(٢٨) انظر مذكراته عن مشاركته في العمليات العسكرية في صفحة سابقة.

(٢٩) أخبار مجموعة: ص ص ١٧، ١٩، ٢٤ ابن عذاري: البيان ٩/ ١١، ١٢؛ عنان: دولة ص ٥٢.

(٣٠) انظر: المقرئ: نفع ٢٥٧/١؛ الصوفي: تاريخ ص ٨٠. وهذا بلاشك - قول تنقصه الحصافة، إذ أن أي شخص له أدنى إلمام بالتاريخ يدرك أهداف المسلمين النهائية، فما بالك بمن عرفهم وتعامل معهم منذ وقت طويل كيوليان؟ بالإضافة إلى الخطأ التي وضعها قادة الفتح الإسلامي وأطلع عليها يوليان، كلها ندحض هذا القول.

(٣١) العبر: ٤٢٧/١١.

(٣٢) انظر: البيان: ٥/٢.

(٣٣) فتوح ص ٧٢.

(٣٤) المقصود بذلك هو الفترة ما بين لقائه عقبة وهذه المفاوضة.

(٣٥) انظر: ابن عذاري: البيان ٦/٢ المقرئ: نفع ٢٥٢-٢٥٢/١.

(٣٦) تاريخ المغرب وحضارته ط. بيروت ١٤١٢هـ ج ١ ص ٩٢.

(٣٧) انظر: فتح ص ١٩٢؛ فجر ص ٥٤.

(٣٨) انظر: فتح ص ١٩٢.

(٣٩) ابتداءً بحدود سنة ٢٢ على يحيى عمرو بن العاص وتم على يحيى موسى بن نصير حوالي سنة ٩١هـ.

(٤٠) ورد بصيغ متعددة، فهو مرة إيلان وأخرى بليان وثالثة بليان، ثم هو ايليان وليان أو اليان . . . الخ وقرئ،

خوليان وجوليان عند من كتبوا باللغات اللاتينية؛ انظر بالإضافة لما ذكرناه من مصادر ومراجع تطرقت لسيرته،

البحث الذي خصصه ماتشادو لدراسة هذا الاسم وقراءاته المختلفة: OSVALDO MACHADO, "LOS nombres del llamado Conde don julian" Cuadernos de Historia de Espana, n. 111, (1945). pp.

106-116.

(٤١) مؤنس: فتح ص ١٩٣؛ خليفة: التاريخ ص ٨١.

(٤٢) انظر: ابن عذاري: البيان ٩/٢ عنان: دولة ٥٢/١، كما السيد أبو مصطفى: بحوث في تاريخ وحضارة

الأندلس في العصر الإسلامي الاسكندرية ١٩٩٢ ص ١٢-١٢١.

(٤٣) خليفة: التاريخ ص ٨٨. وهي رواية لها ما يؤيدها، إذ تذكر المصادر بأن موسى بن نصير عندما ذهب إلى الشام

صحب معه عدد من ذوي الشأن من نبلاء وأعيان وغيرهم؛ انظر: ابن القوطية: افتتاح ص ٢٦؛ ابن قتيبة:

الإمامة والسياسة ط. بيروت؟ ج ٢ ص ٦٨.

(٤٤) عنان: دولة ٦٠/١.

(٤٥) العبر ٤٣٨/١١.

(٤٦) تاريخ علماء الأندلس ج ١ / ٨٦-٨٧ ت ٢٧٠.

(٤٧) تاريخ علماء الأندلس ١٨٨/١-١٨٩ ت ١٥٦٦؛ وانظر: حسين مؤنس: فجر ص ٥٢ هامش ٣.